

فَيَغْفُلُ عَنْ قَدْرِ النِّعْمَةِ بِالْأَمْنِ فِيمَا سِوَاهُ، فَصَارَ كَالْمَرِيضِ الَّذِي هُوَ بِمَرَضِهِ مُتَشَاغِلٌ، وَلَعَلَّ مَا صُرِفَ عَنْهُ أَعْظَمُ مِمَّا أُبْطِلَ بِهِ، وَإِنَّمَا يُوَكَّلُ بِالْأَدْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي. وَحُكِيَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ - وَأَعْرَابِيٌّ حَاضِرٌ -: مَا أَشَدَّ وَجَعَ الصُّرْسِ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: كُلُّ دَاءٍ أَشَدُّ دَاءً. وَكَذَلِكَ مَنْ عَمَهُ الْأَمْنُ كَمَنْ اسْتَوَلَتْ عَلَيْهِ الْعَافِيَةُ، فَهُوَ لَا يَعْرِفُ قَدْرَ النِّعْمَةِ بِأَمْنِهِ حَتَّى يَخَافَ، كَمَا لَا يَعْرِفُ الْمُعَافَى قَدْرَ النِّعْمَةِ حَتَّى يُصَابَ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرَ النِّعْمَةِ بِمُقَاسَةِ ضِدِّهَا. فَأَخَذَ ذَلِكَ أَبُو تَمَامٍ الطَّائِيُّ فَقَالَ: وَالْحَادِثَاتُ وَإِنْ أَصَابَكَ بُؤْسُهَا. فَهُوَ الَّذِي أَنْبَاكَ كَيْفَ نَعِيمُهَا حُكِيَ أَنَّ يَعْقُوبَ قَالَ لِيُوسُفَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -، حِينَ لَقِيَهُ: أَيُّ شَيْءٍ كَانَ خَبْرُكَ بَعْدِي؟ قَالَ: لَا تَسْأَلُ عَمَّا فَعَلْتُ بِي إِخْوَتِي سَلْنِي عَمَّا صَنَعَهُ بِي رَبِّي. وَذَلِكَ مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي لِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَانْتِظَامِ أَحْوَالِهَا، وَلِأَنَّ الْخِصْبَ يُؤَلُّ إِلَى الْغِنَى وَالْغِنَى يُورِثُ الْأَمَانَةَ وَالسَّخَاءَ. وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: لَا تَسْتَفْضِينَ إِلَّا ذَا حَسَبٍ وَمَالٍ، فَإِنَّ ذَا الْحَسَبِ يَخَافُ الْعَوَاقِبَ وَذَا الْمَالِ لَا يَرْغَبُ فِي مَالٍ غَيْرِهِ. وَقَالَ بَعْضُ السَّالِفِ: إِنِّي وَجَدْتُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي التَّقَى وَالْغِنَى، وَشَرَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الْفُجُورِ وَالْفَقْرِ. وَلَمْ أَرْ بَعْدَ الدِّينِ خَيْرًا مِنَ الْغِنَى. وَلَمْ أَرْ بَعْدَ الْكُفْرِ شَرًّا مِنَ الْفَقْرِ وَبِحَسَبِ الْغِنَى يَكُونُ إِقْلَالُ الْبَخِيلِ وَإِعْطَاؤُهُ، وَإِكْثَارُ الْجَوَادِ وَسَخَاؤُهُ، كَمَا قَالَ دِعْبِلُ: فَلَسْتُ بِمَوْلٍ نَائِلًا آخِرَ الدَّهْرِ وَأَيُّ إِنَاءٍ لَمْ يَفْضُ عِنْدَ مِلْثِهِ. كَانَ الْجَدْبُ يَحْدُثُ مِنْ أَسْبَابِ الْفَسَادِ مَا ضَادَهَا. وَكَمَا أَنَّ صَلَاحَ الْخِصْبِ عَامٌّ، فَكَذَلِكَ فَسَادُ الْجَدْبِ عَامٌّ، وَمَا عَمَّ بِهِ الصَّلَاحُ إِنْ وَجِدَ، وَمَا عَمَّ بِهِ الْفَسَادُ إِنْ فَقَدَ، فَأُخْرَى أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوَاعِدِ الصَّلَاحِ وَدَوَاعِي الْإِسْتِقَامَةِ. وَالْخِصْبُ يَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ: خِصْبٌ فِي الْمَكَاسِبِ، فَأَمَّا خِصْبُ الْمَكَاسِبِ فَقَدْ يَنْفَرُ مِنْ خِصْبِ الْمَوَادِّ وَهُوَ مِنْ نَتَائِجِ الْأَمْنِ الْمُقْتَرِنِ بِهَا. وَأَمَّا خِصْبُ الْمَوَادِّ فَقَدْ يَنْفَرُ عَنْ أَسْبَابِ إِلَهِيَّةٍ وَهُوَ مِنْ نَتَائِجِ الْعَدْلِ الْمُقْتَرِنِ بِهَا. وَأَمَّا الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: فَهِيَ أَمَلٌ فَسِيحٌ يَبْعَثُ عَلَى اقْتِنَاءِ مَا يَفْصُرُ الْعُمُرَ عَنْ اسْتِيعَابِهِ وَيَبْعَثُ عَلَى اقْتِنَاءِ مَا لَيْسَ يُؤْمَلُ فِي دَرَكِهِ بِحَيَاةِ أَرْبَابِهِ. لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كُلِّ عَصْرِ إِلَى إِنْسَاءٍ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ مَنَازِلِ السُّكْنَى وَأَرَاضِي الْحَرِّ، فَلِذَلِكَ مَا أَرْفَقَ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَهُ بِاتِّسَاعِ الْأَمَالِ إِلَّا حَتَّى عَمَرَ بِهِ الدُّنْيَا فَعَمَّ صَلَاحُهَا وَصَارَتْ تَنْتَقِلُ بِعُمْرَانِهَا إِلَى قَرْنٍ بَعْدَ قَرْنٍ، وَيُرَمِّمُ النَّالِثُ مَا أَحْدَثَهُ النَّائِي مِنْ شَعْنِهَا لِتَكُونَ أَحْوَالُهَا عَلَى الْأَعْصَارِ مُلْتَمِمةً، وَأُمُورُهَا عَلَى مَمَرِ الدُّهُورِ مُنْتَظِمةً. وَلَوْ قَصُرَتْ الْأَمَالُ مَا تَجَاوَزَ الْوَاحِدُ حَاجَةَ يَوْمِهِ، وَلَكَانَتْ تَنْتَقِلُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ خَرَابًا لَا يَجِدُ فِيهَا بُلْغَةً، ثُمَّ تَنْتَقِلُ إِلَى مَنْ بَعْدَ بَأْسُوٍّ مِنْ ذَلِكَ حَالًا حَتَّى لَا يُنْمَى بِهَا نَبْتُ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: الْأَمَلُ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِأُمَّتِي، وَلَوْلَاهُ لَمَّا غَرَسَ غَارِسٌ شَجَرًا وَلَا أَرْضَعَتْ أُمٌّ وَلَدًا. فَالْمَرْءُ يَبْسُطُهَا وَالْدَّهْرُ يَقْبِضُهَا. وَالنَّفْسُ تَنْشُرُهَا وَالْمَوْتُ يَطْوِيهَا وَأَمَّا حَالُ الْأَمَلِ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ فَهُوَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي الْعَقْلَةِ عَنْهَا، وَقَدْ أَفْصَحَ لَبِيدٌ مَعَ أَعْرَابِيَّةٍ بِمَا تَبَيَّنَ بِهِ حَالُ الْأَمَلِ فِي الْأَمْرَيْنِ، فَهَذِهِ الْقَوَاعِدُ السَّبْتُ الَّتِي تَصْلُحُ بِهَا أَحْوَالُ الدُّنْيَا، وَتَنْتَظِمُ أُمُورَ جَمْلَتِهَا، فَإِنْ كَمَلْتَ فِيهَا كَمَلَ صَلَاحُهَا. وَبَعِيدٌ أَنْ يَكُونَ أَمْرُ الدُّنْيَا تَامًا كَامِلًا، وَأَنْ يَكُونَ صَلَاحُهَا عَامًّا شَامِلًا؛ لِأَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ عَلَى التَّغْيِيرِ وَالْفَنَاءِ، مُنْشَأَةٌ عَلَى التَّصَرُّمِ وَالْإِنْقِضَاءِ. وَسَمِعَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ رَجُلًا يَقُولُ: قَلْبَ اللَّهِ الدُّنْيَا، وَبِحَسَبِ مَا اخْتَلَفَ مِنْ قَوَاعِدِهَا يَكُونُ اخْتِلَالُهَا. فَصَلِّ: وَأَمَّا مَا يَصْلُحُ بِهِ حَالُ الْإِنْسَانِ فِيهَا فَثَلَاثَةٌ أَشْيَاءَ، وَهِيَ: نَفْسٌ مُطِيعَةٌ إِلَى رُشْدِهَا مُنْتَهِيَةٌ عَنْ غِيَّهَا، وَالْأَلْفَةُ جَامِعَةٌ تَنْعَطِفُ الْقُلُوبُ عَلَيْهَا وَيَنْدَفِعُ الْمَكْرُوهُ بِهَا، وَمَادَّةٌ كَافِيَةٌ تَسْكُنُ نَفْسُ الْإِنْسَانِ إِلَيْهَا وَيَسْتَقِيمُ أَوْدُهُ بِهَا. وَإِذَا عَصَتْهُ مَلَكَتْهُ وَلَمْ يَمْلِكْهَا. وَمَنْ عَصَتْهُ نَفْسُهُ كَانَ بِمَعْصِيَةِ غَيْرِهَا أَوْلَى. وَلِذَلِكَ قِيلَ: مَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا} [النساء: ٢٧]. وَلِلنَّفْسِ آدَابٌ هِيَ تَمَامُ طَاعَتِهَا، وَقَدْ أَفْرَدْنَا لَهَا مِنْ هَذَا الْكِتَابِ بَابًا وَاقْتَصَرْنَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى مَا قَدْ اقْتَضَاهُ التَّرْتِيبُ، وَأَمَّا الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ وَهِيَ الْأَلْفَةُ الْجَامِعَةُ: فَلِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَقْصُودٌ بِالْأَلْفَةِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَلْفًا مَأْلُوفًا تَخَطَّفَتْهُ أَيْدِي حَاسِدِيهِ، وَإِنْ كَانَ صَفْوُ الزَّمَانِ عُسْرًا، وَقَدْ رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ عَنْ جَابِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ أَلْفٌ مَأْلُوفٌ، وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا. يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِهِ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّقُوا وَأَنْ تَنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةُ الْمَالِ». وَكُلُّ ذَلِكَ حَثٌّ مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الْأَلْفَةِ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: مَنْ قَلَّ ذَلَّ وَقَالَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ: عَزَتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَإِنْ هِيَ بَدَدَتْ. وَإِذَا كَانَتْ الْأَلْفَةُ بِمَا أُثْبِتَ تَجَمُّعُ الشَّمْلِ وَتَمَنُّعُ الذَّلِّ، اقْتَضَتْ الْحَالَ ذِكْرَ أَسْبَابِهَا. وَأَسْبَابُ الْأَلْفَةِ خَمْسَةٌ وَهِيَ: الدِّينُ وَالنَّسَبُ وَالْمُصَاهَرَةُ وَالْمَوَدَّةُ وَالْبِرُّ. وَبِمِثْلِ ذَلِكَ وَصَّى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَصْحَابَهُ، فَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابِرُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ». وَهَذَا وَإِنْ كَانَ اجْتِمَاعُهُمْ فِي الدِّينِ يَقْتَضِيهِ فَهُوَ عَلَى وَجْهِ التَّحْذِيرِ مِنْ تَذَكُّرِ تَرَاثِ الْجَاهِلِيَّةِ وَإِحْنِ الضَّلَالَةِ. فَقَدْ بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْعَرَبُ أَشَدُّ تَقَاطُعًا وَتَعَادِيًا، وَأَكْثَرُ اخْتِلَافًا وَتَمَادِيًا، حَتَّى إِنْ بَنَى الْأَبُّ الْوَاحِدَ يَتَفَرَّقُونَ أَحْزَابًا فَتَثِيرُ بَيْنَهُمُ بِالنَّحْزَبِ وَالْإِفْتِرَاقِ أَحْقَادُ الْأَعْدَاءِ، وَكَانَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مِنَ الْإِخْتِلَافِ وَالتَّبَايُنِ أَكْثَرُ

مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَى أَنْ أَسْلَمُوا فَذَهَبَتْ إِحْنُهُمْ وَانْقَطَعَتْ عَدَاوَتُهُمْ وَصَارُوا بِالْإِسْلَامِ إِخْوَانًا مُتَوَاصِلِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: ١٠٣] . وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم: ٩٦] . وَعَلَى حَسَبِ التَّأْلِيفِ عَلَى الدِّينِ تَكُونُ الْعَدَاوَةُ فِيهِ إِذَا اخْتَلَفَ أَهْلُهُ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَفْطَحُ فِي الدِّينِ مَنْ كَانَ بِهِ بَرًّا وَعَلَيْهِ مُشْفِقًا. هَذَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وَقَدْ كَانَتْ لَهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ فِي الْفَضْلِ وَالْأَثَرِ الْمَشْهُورِ فِي الْإِسْلَامِ، قَتَلَ أَبَاهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَتَى بِرَأْسِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ، حِينَ بَقِيَ عَلَى ضَلَالِهِ وَانْهَمَكَ فِي طُغْيَانِهِ. فَلَمْ يُعْطِفْهُ عَلَيْهِ رَحْمَةً وَلَا كَفَّهُ عَنْهُ شَفَقَةً، تَغْلِيظًا لِلدِّينِ عَلَى النَّسَبِ وَطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى طَاعَةِ الْأَبِ. وَفِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} [المجادلة: ٢٢] . وَعَلَى ذَلِكَ أَنَّ الدِّينَ وَالْإِجْتِمَاعَ عَلَى الْعَقْدِ الْوَاحِدِ فِيهِ لَمَّا كَانَ أَقْوَى أَسْبَابِ الْأُلْفَةِ، كَانَ الْإِخْتِلَافُ فِيهِ أَقْوَى أَسْبَابِ الْفُرْقَةِ. وَإِذَا تَكَافَأَ أَهْلُ الْأَدْيَانِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمَذَاهِبِ الْمُتَبَايِنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ أَعْلَى يَدًا، كَانَتْ الْعَدَاوَةُ بَيْنَهُمْ أَقْوَى وَالْإِحْنُ فِيهِمْ أَعْظَمُ؛ لِأَنَّهُ يَنْضَمُّ إِلَى عَدَاوَةِ الْإِخْتِلَافِ تَحَاسُدُ الْأَكْفَاءِ، وَأَمَّا النَّسَبُ: وَهُوَ الثَّانِي مِنْ أَسْبَابِ الْأُلْفَةِ فَلِأَنَّ تَعَاطُفَ الْأَرْحَامِ وَحِمِيَّةَ الْقَرَابَةِ يَنْعَثَانِ عَلَى التَّنَاصُرِ وَالْأُلْفَةِ، وَتَوْقِيًّا مِنْ تَسَلُّطِ الْغُرَبَاءِ الْأَجَانِبِ. مُتَنَاصِرَةً عَلَى مَنْ شَاقَّهَا وَعَادَاهَا، حَتَّى بَلَغَتْ بِالْأُلْفَةِ الْأَنْسَابِ تَنَاصُرُهَا عَلَى الْقَوِيِّ الْأَيْدِ وَتَحَكَّمَتْ بِهِ تَحَكُّمُ الْمُتَسَلِّطِ الْمُتَشَطِّطِ. وَقَدْ أَعْذَرَ نَبِيُّ اللَّهِ لُوطٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَفْسَهُ حِينَ عَدِمَ عَشِيرَةَ تَنْصُرُهُ، فَقَالَ لِمَنْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [هود: ٨٠] . وَرَوَى أَبُو سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «مَا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا إِلَّا فِي تَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ» . وَرَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكُلُّ ذَلِكَ حَثٌّ مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الْأُلْفَةِ وَكَفٌّ عَنِ الْفُرْقَةِ. وَتَبَعَتْ عَلَى الْفُرْقَةِ الْمُنَافِقَةُ لَهَا. فَإِذَا قَدْ لَزِمَ أَنْ نَصِفَ حَالَ الْأَنْسَابِ، فَجُمْلَةُ الْأَنْسَابِ أَنَّهَا تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةً أَقْسَامٍ: قِسْمٌ وَالِدُونَ، وَلِكُلِّ قِسْمٍ مِنْهُمْ مَنْزِلَةٌ مِنَ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ، وَعَارِضٌ يَطْرَأُ فَيَبْعَثُ عَلَى الْعُقُوقِ وَالْقَطِيعَةِ. وَهُمْ مُؤَسَّوْمُونَ مَعَ سَلَامَةِ أَحْوَالِهِمْ بِخُلُقَيْنِ: أَحَدُهُمَا لَزِمَ بِالطَّبْعِ، فَأَمَّا مَا كَانَ لَزِمًا بِالطَّبْعِ فَهُوَ الْحَذَرُ وَالْإِشْفَاقُ. وَذَلِكَ لَا يَنْتَقِلُ عَنِ الْوَالِدِ بِحَالٍ، وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ مَجْبَبَةٌ مَحْزَنَةٌ» . فَأَخْبَرَ أَنَّ الْحَذَرَ عَلَيْهِ يُكْسَبُ هَذِهِ الْأَوْصَافُ، وَقَدْ كَرِهَ قَوْمٌ طَلَبَ الْوَلَدِ كِرَاهَةً لِهَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي لَا يَفْدِرُ عَلَى دَفْعِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَقِيلَ لِيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - : مَا بِالكَ تَكْرَهُ الْوَلَدَ؟ فَقَالَ: مَا لِي وَلِلْوَلَدِ، وَأَمَّا مَا كَانَ حَادِثًا بِالْاِكْتِسَابِ فَهِيَ الْمَحَبَّةُ الَّتِي تُنَمَّى مَعَ الْأَوْقَاتِ، وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «الْوَلَدُ أَنْوَطٌ» . يَعْنِي أَنَّ حُبَّهُ يَلْتَصِقُ بِنَيْطِ الْقَلْبِ. وَثَمَرَةُ الْقَلْبِ الْوَلَدُ» . مَعَ بَقَاءِ الْحَذَرِ وَالْإِشْفَاقِ الَّذِي لَا يَزُولُ عَنْهُ، فَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَضِيَ الْأَبَاءَ لِلْأَبْنَاءِ فَحَذَرَهُمْ فِتْنَتَهُمْ وَلَمْ يُوصِهِمْ بِهِمْ، وَلَمْ يَرْضَ الْأَبْنَاءَ لِلْأَبَاءِ فَأَوْصَاهُمْ بِهِمْ. وَشَرَّ الْأَبَاءِ مَنْ دَعَاهُ الْبِرُّ إِلَى الْإِفْرَاطِ. وَالْأُمَّهَاتُ أَكْثَرُ إِشْفَاقًا وَأَوْفَرُ حُبًّا لِمَا بَاشَرْنَ مِنَ الْوِلَادَةِ وَعَانِينَ مِنَ التَّرِييَةِ فَإِنَّهُنَّ أَرْقُ قُلُوبًا وَأَلْيَنُ نَفُوسًا. وَبِحَسَبِ ذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ التَّعَطُّفُ عَلَيْهِنَّ أَوْفَرَ جَزَاءٍ لِفِعْلِهِنَّ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} [العنكبوت: ٨] . فَهَلْ جَزَيْتَهُمَا؟ قَالَ لَا وَلَا بِزَفَرَةٍ وَاحِدَةٍ. وَأَنْتِ تَخْدُمُهَا وَتُحِبُّ مَوْتَهَا» . وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «أَنْهَاكُمْ عَنْ عُقُوقِ الْأُمَّهَاتِ، وَرَوَى خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ عَنْ الْمِقْدَامِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ ثُمَّ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَلَا أَقْرَبَ» . وَأَمَّا الْمُؤَلَّدُونَ فَهُمْ الْأَوْلَادُ وَالْأَوْلَادُ وَالْعَرَبُ تُسَمِّي وَلَدَ الْوَلَدِ الصَّفْوَةَ. وَهُمْ مُخْتَصُّونَ مَعَ سَلَامَةِ أَحْوَالِهِمْ بِخُلُقَيْنِ: أَحَدُهُمَا لَزِمَ، وَقَدْ لَحَظَ أَبُو تَمَامٍ الطَّائِي هَذَا الْمَعْنَى فِي شِعْرِهِ فَقَالَ: فَأَصْبَحْتُ يَلْقَانِي الزَّمَانُ لِأَجَلِهِ . فَأَمَّا الْمُتَنَقِّلُ فَهُوَ الْإِدْلالُ